الكولونل لورنس

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

خاضت الدولة العثمانية غمار الحرب في شهر نوفمبر من سنة ١٩١٤ فأمر اللورد كتشنر بشة الحدود الانكليزية التي امتدت شبه جزيرة سينا في سنة ١٩١٣ ودرستها درساً حربيًّا بحيلة البحث عن عادياتها ان تسافر على جناح السرعة الى مصر ليستعان بمعلوماتها في ردّ ما يحتمل من غارات الترك على مصر. غير ان الجنرال (مكسول) ابرق من القاهرة يقول ان لا حاجة الى هذه البعثة فأجابهُ اللورد انها على طريقها الى مصر. ويذكر القراء ان لورنس هو من اعضائها فلما بلغ القاهرة انضم الى قسم الخرائط الحربية في دائرة الاستخبارات فظهرت مزاياه. وكان عارفاً ببعض المقاطعات في سورية والعراق ومطلعاً على جغرافيتها اكثر من الضباط العثمانيين انفسهم لأن اشتغاله بالحفريات في تلك الاصقاع زوّده بالملاحظات القيمة

وكانت الوظيفة التي شغلها في مصر ضابطاً رئيساً — كابتن — في الاستخبارات العامة لدى المقر العام. فكان عليه ان يقدم التقارير الدورية للاركان الحربية عن مواقع الفرق والقطع المتنوعة في الجيش العثماني. وكان يجمع المعلومات من الجواسيس والاسرى ومع انهُ كان من انفع الضباط البريطانيين وخدماته من اثمن الخدمات الاّ انهُ لم يكن مقبولاً عند رؤسائه كثيراً ولا مرغوباً فيه خصوصاً عند من جاء منهم اخيراً من انكلترا. لأن هؤلاء الضباط الانكليز مثل اكثر الضباط في الامم الاخرى لا يعتقدون ان الرجال الملكيين اشباه لورنس قادرون على البحث في الموضوعات العسكرية. وحدث شيء من الاضطراب مثلاً لما قاطع لورنس قائدين اثنين من القواد يحثان عن تنقل بعض الجيوش العثمانية فقال لهما بلهجة جافة « ثرثرة وكلام فارغ، ان هذه الجيوش لا تستطيع قطع هذه المسافة في ضعفي الزمن الذي قدرتماه لها. فالطرق سيئة وليس ثمة نقالات محلية وعلاوة على ذلك فالضابط الذي يقودهم رجل كسلان». والذين يعرفون دقة الانكليز وادبهم في المعاملات الرسمية يقدرون سوء وقع هذا الكلام خصوصاً لصدوره من مرؤوس الى رئيس. ومما لوحظ عليه اسلوبه في الكتابة ففي النسخة الرابعة عشرة من كتاب المعلومات عن الجيش التركي يقول لورنس « ان الجنرال عبد . . . قائد الفرقة . . . . هو نصف الباني ومصاب

بمرض السل وهو ضابط قدير واخصائي في المدفعية الا انهُ خبيث ساقل يقبل الرشوة » وكانت مثل هذه الملاحظات الشخصية غير مرغوب فيها لأن الرأي السائد في الجيش البريطاني أن ضباط الحصم هم اهل شرف ويستحقون الاكرام

وكانت القاهرة في سنة ١٩١٥ طافحة بالامراء العسكريين من رتبة جنرال ولواء من غير عمل يعملونهُ سوى ارسال الرسائل الفضولية التي لاحاجة اليها والوقوف عثرة في طريق الافراد القلائل العاملين حتى اصبحت الحالة مهزلة من المهازل . هنا يظهر لورنس الضابط مكشراً عن نابه وراء ستار في فندق (سافوي) مع زميل شبيه به يعدّان بصوت خافت « واحد ، اثنين . . . » الى آخره وهو عدد من كانوا يرون من القواد القادمين لحضور مؤتمر عقدلهم خاصّة وأكّد بعضهم ان لورنس عدّ في ذلك اليوم خمسة وستين جنرالاً منهم !

ارسال لورنس الى العراق

ومن المسائل التي تهم الشرقيين معرفتها وتدل على ان الاشاعات القديمة عن تناول بعض الضباط العثمانيين الرشوة في ميدان الحرب من الاعداء لتسليم البلاد العثمانية هي اشاعات ترتكز على شيء من الحقيقة حتى في ازمان متأخرة كالحرب العالمية هو ان وزارة الحربية البريطانية انتدبت الكابتن لورنس في اوائل سنة ١٩١٦ لمهمة سرية خطيرة وهي الاتصال بالسلطة التركية التي كانت تحاصر الجنرال (تونزند) في كوت الامارة في العراق واستمالتها بالرشوة لفك الحصار عن الجيوش البريطانية . والظاهر ان هذه الخطة تعلمها الانكليز من سابقة حدثت في ارضروم فان الروس احتلوا هذه المدينة كما اشار الى ذلك الكولونل (بوكان) عملاً باتفاق سابق قام على الرشوة . ولكن لورنس قال ان البرطيل (الرشوة) سيكون هنا عديم الجدوى وسيشجع العدو لان القائد التركي خليل باشا هو من اقرباء انور باشا وخزائن الدولة العثمانية مفتوحة امامه فلا موجب لقلقه على المال . ومن الغريب ان القواد البريطانيين في العراق لم تسرهم هذه الفكرة وقال اثنان منهم للكابتن لورنس ان مهمته غير شريفة ولا تليق بالجندي الباسل

ومما هو حري بالتدوين ان الجيش البريطاني الذي اغار على العراق كان تحت تصرف حكومة الهند ومع أن اللورد كتشنر — وهو القائد العام للقوى البريطانية — ذاكر في اوائل الحرب زعيمين اثنين من زعماء الجمعيات السرية العراقية في احداث تمرد في الجيش العثماني واخراج الترك من العراق الا انهُ فتّ في ساعده ولم يتوفق . ذلك لان الحكومة الهندية كانت تخشى من العرب انهم اذا تمردوا لم تستطع فيما بعد اخضاعهم لسلطانها لانهم يصرون حينئذٍ على استقلالهم ويدافعون عنهُ وهكذا فالمساعدة التي كان كتشنر مستعدًّا

لتقديمها امتنعت والتمرد في الجيش العثماني لم يحدث بل بالعكس سيق جيش من الهند لجب ليعمل منفرداً من غير مساعدة العرب فكانت النتيجة كما قال المستر جريفز هلاكاً . وكان الهنود والانكليز في نظر العرب كالترك فاتحين غير مرغوب فيهم وكانوا هدفاً لغارات تشنها القبائل المحلية

ولاح للمستر جريفز ان السبب الحقيقي الذي دعا لورنس الى قبول هذه المهمة هو السفر الى العراق ليرى هل يسمح الموقف هناك بتعاون بين البريطانيين والقبائل العربية على الفرات قائم على خطة وطنية عربية . وهذه القبائل عرفها لورنس منذ عهد «كرشميش» وحفرياتها وكان يرجو ان يتصل بقبيلة (الرولا) وشيخها (النوري الشعلان) في شمال بادية الشام لعله يقطع بالاشتراك معها خطوط المواصلات على الترك وذلك باقفال باب النقل على النهر وشن الغارة على مفرزات المؤونة الى ان يضطر الجيش التركي الذي يحاصر الكوت محصوراً هو نفسه . وكان في طاقة الكوت ان يقاوم الترك الى ان تمكن لورنس من تجهيز اتهِ لو تيسرت طيارات اخرى لثمان تصب المؤونة على المدينة من علٍ ولكنهُ وجد ذلك عبثاً لان اغتصاب العراق كما يقول المستر جريفز من غير مساعدة العرب وجعله جزءاً من الامبراطورية البريطانية كان « سياسة ثابتة لا تتزلزل ». ويكاد الانكليز يفضلون احتلاء البلاد للترك على الاعتراف بالعرب قوة سياسية وانتهى الامر بأن خابت آمال لورنس فلم يعمل ما جاء لتدبيره

تناقض السياسة البريطانية العربية

ومن المسائل التي استعصت علينا كثيراً في ابان الثورة العربية ولم نفهم لها تعليلاً معقولاً ما كنا نراه من البريطانيين في شأن نهضتنا القومية من التشجيع والتثبيط في آن واحد حتى خلنا أن ذلك سياسة مقصودة ترمي الى غاية غامضة لا يعلمها الا الراسخون في العلم. واني اضرب على ذلك مثلا بما جرى لي بنفسي فاني لم اغادر سورية حتى صار من قواعد ايماني وايمان اخواني ان نحارب احمد جمال باشا السفاح واعوانه بكل جارحة من جوارحنا فلما اتصلت بعسكر الاسرى العرب في المعادي بالقرب من القاهرة اتخذت على عاتقي أن ابث فيهم روح القومية بما كنت اقرؤهُ عليهم من الدروس خصوصاً اخبار الجرائم التي اجترمت في بلادهم والمشانق التي نصبت لزعمائهم وكانت غايتي ان اجمع منهم نواة لتأليف جيش نظامي يكون عدة للبلاد في نهضتها وسنداً لها في محنتها حتى اني تمكنت بهذه الطريقة من اقناع قائد باسل هو جعفر باشا العسكري : فقد كان ضابطاً في الجيش العثماني وابلى بلاءً حسناً في محاربة الانكليز وقد انتدبهُ انور باشا لتنظيم القبائل السنوسية في الصحراء الليبية فسافر في غواصة ألمانية ونظم هذه القبائل حتى تمكن بها من ارهاق الانكليز على حدود الاسكندرية ولكنهم قبضوا عليه اخيراً وسجنوهُ في قلعة (محمد علي) حيث حاول الفرار في احدى الليالي بان تدلى على

عودة أبو تايه

مقتطف أبريل ١٩٣١

الكولونل لورنس

أمام الصفحة ٤٢٩

جبل من النافذة فانصرم به فسقط على الارض فانكسر ساقهُ ثم نقل الى المستشفى في المعادي فاتيحت لي مقابلته لاول مرة فرأيتهُ منحـــازاً للاتحاديين من غير ان يدري ماذا كانوا يعملون في البلاد مما اضطرني الى اطلاعه على الوقائع حظولاً وقدمت لهُ نسخة من جريدة « الشرق » وفيها اسماء الشهداء الذين اعدموا في الرتل الثاني في بيروت ودمشق في اليوم السادس من مايو سنة ١٩١٦ فاظهر دهشة عظيمة ولما وصل الى اسم صديقه الشهيد العربي سليم بك الجزائري وهو من كبار الضباط الاركان حرب قال لي « كفى يا دكتور والله لا تضمن لدمه ولدم اخوانه من هؤلاء الاتحاديين السفاحين ما يروى الظمأ » وقد برّ يمينه والتحق بالجيش العربي فوصل ميناء الوجه في اوائل سنة ١٩١٧ وحارب في الثورة العربية حرب الرجال كما حارب زملاؤهُ مولود مخلص وواسم سردست ونوري السعيد وغيرهم من ابطال الضباط السوريين والعراقيين

وقد سرنا على هذه الخطة في تنوير اذهان الاسرى من العرب حتى تمكنا من اكتساب العدد العديد منهم وحملهم على التطوع في الجيش العربي الفتي ولكن جهودنا كانت كما اوشكت ان تثمر اصابتها صدمة عنيفة من رجال العسكرية البريطانية كادت تذهب بها. فكان كل تشجيع يأتي من المكتب العربي في فندق ساقوي يقابله الكولونل (سمسن) في المعسكر في المعادي بالمقاومة ووضع العراقيل ومع ذلك فقد كان نجاحنا في سوق الافراد للانخراط في الجيش في الوجه ورابغ والعقبة باهراً بالرغم من كل هذه المقاومات لان معظم الاسرى ايقنوا ان مظالم السفاح احمد جمال باشا ومن شجعهُ على السياسة التي سلكها في بلاد العرب لا يجوز السكوت عنها الا اذا كانت الامة العربية قد استكانت للظلام استكانتها لاذل انواع الاستعباد. والفذلك الآتية المأخوذة مما كتبهُ المستر روبرت جريفز عميد المتام عن سر هذا التناقض في السياسة البريطانية :

كانت الاحوال بعد عودة لورنس من العراق واستسلام الجنرال تونزند في كوت الامارة تنتقل من سيء الى اسوأ اما المندوب السامي البريطاني الذي قطع للشريف حسين عهوداً باسم وزارة الخارجية البريطانية فقد وقع في حيص بيص، ذلك لان القائد العام للقوى البريطانية في مصر لم يكن يتلقى اوامره الا من وزارة الحربية فقط ولم يكن مؤمناً بالثورة العربية ولا ظهر له ان يبذل المال والرجال والسلاح في سبيلها وكانت القاعدة التي تمشى عليها الا يكون هناك « معرض صغير » عربي الى جانب « المعرض الكبير » البريطاني منعاً من تحويل الانظار والجهود الى الميادين التي ليس لها قيمة كبيرة في نظره ، وحصرها في الميدان الاكبر على جبهة فلسطين. وربما كره هذا القائد ان يتدخل المندوب السامي وهو رجل ملكي

في الشؤون العسكرية. وهكذا نرى فيصلاً واقفاً على ابواب المدينة ينتظر بلهفة وصول المدافع وغيرها من العتاد الذي وعد به وهو خالي الوطاب. اما النجدة المصرية التي جاءته الى رابغ فلم يستجد بعدوصولها شيء يستحق الذكر. ولاح للناس ان الثورة العربية ماتت في المهد ورأى كثير من ضباط الاركان حربية البريطانية في القاهرة في جميع ذلك سخرية بالمندوب السامي وتهكموا فرحاً بأن يجدوا الحسين نفسهُ عاجلاً على مشنقة الاتحاديين وهم كجنود بسطاء كانوا يشعرون في نظرهم الى الترك بعطف الزميل على الزميل فلم يكن في مقدورهم ان يروا الفاجعة والعار في السلك الذي سلكوه. وزاد في الطين بلة ان البعثة الفرنسوية العسكرية كانت تدس الدسائس على الحسين بن علي في جدة ومكة تعرض عليه وهو في ضيق وفي ضجر خططاً حربية لو تمت لجعلت القضية العربية مهزلة في جميع انظار المسلمين ولقضت عليها قضاء مبرماً

اما لورنس فقد اشتدَّ عليه كابوس الامراء العسكريين ورأى ان انكشاف تعصبه للثورة العربية والتزامه جانبها سيبعده عن المقام الذي يخدمها منهُ فعزم على الابتعاد وطلب راحة عشرة ايام ولكن طلبه هذا ردَّ فشرع في خطة عملية مبتكرة وهي ان يجعل نفسه مكروهاً لدى هيئة اركان الحرب وثقيلاً عليهم فأخذ يقرص الضباط الذين هم اعلى منهُ مرتبة بقوارص التصليحات البسيطة في النحو والجغرافيا والعادات الشرقية وما الى ذلك من الملاحظات التي تظهر جهلهم. فمن ذلك ان رئيس الاركان حرب طلبه الى الهاتف — التلفون — « وسألهُ اين موقع الفرقة الحادية والاربعين الزكية الآن ؟ » فاجابهُ « انها في المحل الفلاني بجانب مدينة حلب وهي مؤلفة من الالاي ١٣١ و١٣٢ و١٣٣ وهؤلاء نازلون بالقرية الفلانية والقرية الفلانية والقرية الفلانية» فسأله الضابط : «هل هذه القرى مبينة على الخريطة ؟ » . لورنس : «نعم». الضابط : «هل يتسنى لهم على قائمة التنقلات بعد ؟». لورنس : «كلاَّ» . الضابط : « ولماذا ؟ » . لورنس : « لان الافضل ان تبقى في رأسي الى ان أتمكن من مراجعة هذه المعلومات» . الضابط : « نعم ، ولكن لا يمكنك ان ترسل رأسك الى مدينة الاسكندرية في كل حين » لورنس : « أتمنى من صميم الفؤاد لو اتمكن » وهنا قطع المخابرات. وقد انتجت هذه الاجوبة الجافة النتيجة المطلوبة فتقرر الخلاص من لورنس وذلك بنقله من دائرة الاستخبارات الى المكتب العربي

وفي اوائل اكتوبر من سنة ١٩١٦ سافر لورنس الى جدة حيث التقى بسمو الامير عبد الله ومن هناك طلب الامير فيصلاً فالتقى به — لاول مرة — في وادي الصفراء على طريق المدينة وهاك ما كتبه عنهُ في كتابه «ثورة في الصحراء» ص ١٨ :

« وعلى الجانب الابعد من ساحة الدار الداخلية . . . وقف شبحٌ ابيض ينتظرني

صاحب الجلالة الملك فيصل
كما صور في اثناء الثورة العربية

الدكتور عبد الرحمن شهبندر
صاحب هذا المقال وقد نشرنا له ترجمة لطيفة من القراء

امام الصفحة ٤٣١

بلهفة وشوق . ولما وقعت عيني عليه شعرت بأنهُ الرجل الذي قدمت الجزيرة العربية في طلبه — شعرت بالزعم الذي يستطيع تتويج الثورة العربية باكليل الظفر وظهر لي وهو بكسائه الحريري الابيض وكوفيته المعقودة بعقال ذهبي فرمزي لامع طويلاً جداً كالعمود ونحيفاً للغاية وكانت عيناهُ الذابلتان ولحيته السوداء ووجههُ الشاحب اشبه بالقناع مسدولاً على جسمه المنتبه انتباهاً ساكناً عجيباً وكان متكئاً ويداهُ على خنجره . فسألني (هل احببت مكاننا هنا في وادي الصفراء ؟) فاجبته . « نعم ، ولكنهُ بعيد عن دمشق الشام »

وكان مع الامير فيصل نحو ثمانية آلاف مقاتل منهم ثمانمائة من (الهجانة) فالقى عليهم لورنس نظرة وحادث الامير في الشؤون الحربية ووعدهُ بارسال السلاح والعتاد والمال ثم ودعهُ وسافر الى الخرطوم حيث اجتمع بونجت باشا المندوب السامي البريطاني الجديد فقصَّ عليه من اخبار الثورة العربية ما افرحهُ وهو رجل من المؤمنين بهذه الثورة كما يقول لورنس

ظهور خطة الفرنسويين

وصل لورنس الى القاهرة فتداول مع زملائه في الشؤون المستجدة واحتمال هجوم الترك على مكة ودارت المسألة حول ارسال لواء من الجنود الحلفاء الى تلك الاصقاع فانكشفت الرغوة في هذه المداولة عن صريح السياسة الفرنسوية وزال القناع لان الكولونل بريمون اصرَّ كثيراً على تنفيذ هذه الخطة وكان قد قدم السويس بمدفعية ورشاشات وخيالة ومشاة وكلهم من الجنود المسلمين الجزائريين بقيادة ضباط فرنسويين وكانت الغاية من مجيئهم اغراء البريطانيين وكادت تتم الحيلة فيتخذ قرار بارسال جنود بريطانيين مع حلفائهم الفرنسويين وعلى رأسهم بريمون الى ينبع رابغ ولكن لورنس حال دون ذلك فقدم تقريراً شديد اللهجة الى المقر العام قال فيه ان القبائل العربية قادرة على الدفاع عن الاكام بين المدينة ورابغ اذا هي امدت بالمدافع والضباط ولكنها على التحقيق تنفضُّ الى خيامها اذا علمت بنزول الاجانب بلاد العرب . ومما قاله عن الكولونل الفرنسوي ان له غايات خاصة في طليعة نزول الاجانب الى البر لا تتعلق بالخطط الحربية وانهُ رجل يدس الدسائس على الشريف وعلى الانكليز في آن واحد وقدم البينة على هذه التهم . اما القائد البريطاني العام فقد سرَّ كثيراً بهذا التقرير لانهُ يتفق مع غايته من الابتعاد عن «المعارض الصغرى» الجانبية التي اشرنا اليها وانتهت المسألة في مصلحة العرب بارسال سلاح ومال وضباط الى الجيش في رابغ وتعيين لورنس مستشاراً حربياً للامير فيصل . وكانت غاية بريمون من الحملة ان يحول الفرنسويون والانكليز دون تقدم العرب الى الشمال ومما قاله « متى اصبحت مكة في حوزة حزب من حلفاء الترك فلا يجوز تشجيع العرب على الاستمرار في الحرب وهي حرب في طاقة الحلفاء

ان يديروها اولى من العرب بما لا يخاس» وقد استكشف لورنس الحيلة. وحدث ان الكولونل الفرنسوي كان يخشى أنّ الثورة العربية اذا امتدّت الى دمشق وحلب فالموصل استطاع العرب انقاذ هذه المدن من الترك واحتفاظها لانفسهم بعد الحرب وهي مدن كما يقول حريصة فرنسا ان تضمها الى امبراطوريتها الاستعمارية . ومن الغريب ان يبقى لورنس حتى تلك الساعة جاهلاً اتفاق سيكس — بيكو الذي ينصّ على وضع هذه المدن في منطقة النفوذ الفرنسوي . وعلى كل حال فالكولونل الفرنسوي لما سمع بعزم فيصل ولورنس على السير في خطة الهجوم على ميناء (الوجه) لم يدّخر وسعاً في تثبيط عزيمتهما واقسم بشرفه العسكري ان مثل هذا الهجوم انتحار ولكن لورنس ضرب بكلامه عرض الحائط لاعتقاده ان الفرصة سانحة الآن وان (الوجه) هي الخطوة الاولى

ملاحظات لورنس تنطبق على ملاحظاتنا

لما استعرض لورنس المجاهدين العرب في ميناء (ينبع) وعددهم نحو ستة آلاف في رأس سنة ١٩١٧ ذكر عنهم اموراً تنطبق كثيراً على ما شاهدناه في الثورة السورية فمن ذلك قوله انهم كلما ابتعدوا عن منازلهم ازدادوا نظاماً ودربة وكانت كل جماعة منهم تعمل مستقلة على قاعدة القبائل ولكنهم كانوا جميعاً خاضعين للقيادة العامة عن محبة وخير وقد رتبوا سلاحهم ترتيباً كافياً وان هم لم يزيتوه واعتنوا بابله اعتناء مناسباً ولم يكونوا خطرين اذا ما حاربوا وهم جمهور مجتمع والواقع ان قيمتهم الحربية تتناقص بازدياد عددهم فزمرة او (بلوك) من الجند التركي المدرّب تغلب الف عربي في العراء في حين ان ثلاثة أو اربعة من العرب اذا اقاموا في آكامهم استطاعوا ايقاف العدد الوافر من الترك نسبة

التحول بعد احتلال « الوجه »

وكان بين الضباط البريطانيين الذين لازموا فيصلاً لتقديم المشورة الحربية القائد (فكري) وقد حدث بين هذا الرجل المتشائم وبين لورنس المتفائل بالنجاح اختلاف شديد فظهر لورنس للعرب بجلاء في البحث الذي دار بينهما عن تقدم العرب الى ميناء (الوجه) حتى قال جريفز لم يكن هذا الاختلاف بين ضابطين بريطانيين اثنين قد اختلفا في الرأي بل بين مستشار بريطاني حربي من جهة وعربي اشقر اللون من جهة اخرى ومع ان هذا التحول في شخصية لورنس لم يكن قد تجلى له بعد الا انه كان يجري في عروقه

وقد أحدث احتلال (الوجه) انقلاباً فكريًّا في البريطانيين في مصر فادركوا قيمة الثورة العربية وعرف القائد البريطاني العام أن الجنود الترك الذين يحاربون العرب يربون على الجنود الذين يحاربونه فوعد بالعتاد والسلاح والمال . وكان من لزوم الضروريات للعرب مدافع الجبل لأن مدافع الترك كانت تفضل مدافعهم كثيراً ولكن الجيش البريطاني لم يكن

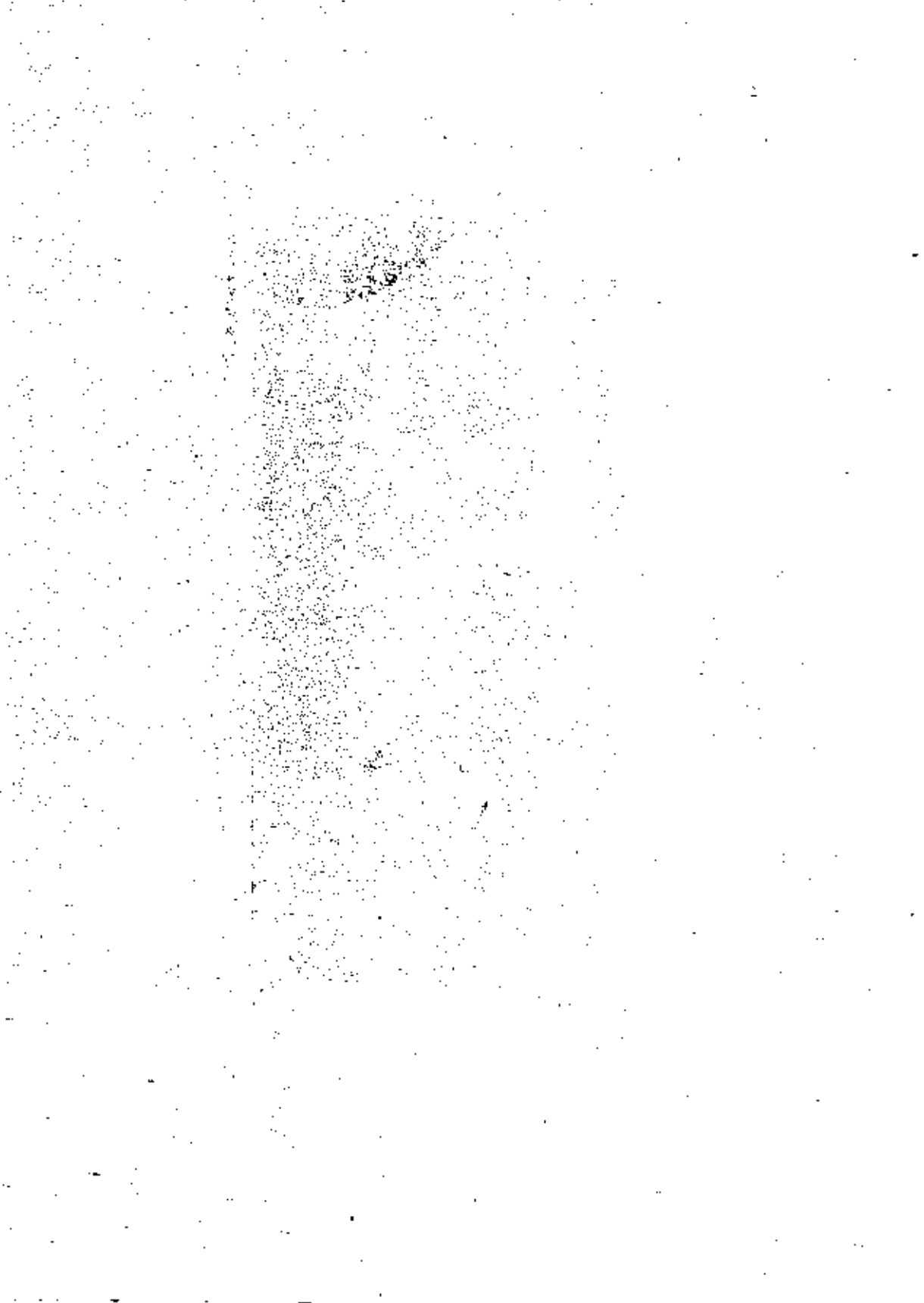

كولونل لورنس

في سلاح الطيران باسم « شو »

مقتطف أبريل ١٩٣١ — امام الصفحة ٤٣٣

في حوزته منها ما يستغني عنهُ اما صاحبنا الكولونل الفرنسوي فكان عنده في السويس تلك المدافع الجبلية التي اشرنا اليها سابقاً وهي من ارقى الانواع الاّ انهُ اشترط لارسالها للحجاز تسيير حملة من الحلفاء لتحول دون تقدم العرب الى الشمال كما تقدم . ومن حسن الحظ ان أُقيل هذا الكولونل فحلّ محله رجل آخر ادرك ضرورة السماح بهذه المدافع للعرب فكان لها تأثير شديد في المعارك . على ان بقاء هذه المدافع مرمية في السويس سنة كاملة لفت انظار كل ضابط عربي مرّ من تلك الجهة الى العداء الذي اضمرهُ الفرنسويون للثورة العربية

وبينما كانت اخبار الانتصار في الوجه لا تزال تدور على الالسنة زار الكولونل الفرنسوي لورنس في القاهرة ليهنئه ومما قالهُ ان هذه الانتصارات حقّقت له ظنه في مقدرة لورنس الحربية وقوّت امله بالحصول على المساعدة لتوسيع دائرة النجاح وهو يرجو ان يحتل العقبة بقوة انكليزية فرنسوية يؤيدها الاسطول . ولكن لورنس قال ان هذه الخطة محكوم عليها بالفشل فالعقبة وان كان في الامكان احتلالها الا ان جبال المحيّب من ورائها تكون حصناً حصيناً للترك يحتلونها فيمنعون اختراقها . وخير ما يعمل ان يترك البدو ليقتحموها من الوراء من غير مساعدة بحرية

كانت غاية الكولونل الفرنسوي وضع هذه القوة الفرنسوية الانكليزية حائلاً دون تقدم العرب الى الشام لتخور قواهم في الجزيرة العربية في الحرب على ابواب المدينة . اما لورنس فهدفه دمشق وما وراءها وكان كلٌّ منهما غالباً بما ينويه الآخر ولكنهُ لا يستطيع الافصاح . واخيراً قال الكولونل بشيء من التهور انهُ ذاهب الى الوجه لمقابلة فيصل ولكن لورنس سبقهُ ليفضح دسائسه . واول ما عمله الضابط الفرنسوي أن اهدى الامير فيصلاً ستة مدافع من الجنس (الاوتوماتيك) بيد ان الامير ذكّرهُ بالمدافع الجبلية الموجودة في السويس واصرّ على طلبها فصرفه الكولونل عنها بقوله ان لا فائدة من المدافع في الجزيرة العربية وعلى العرب ان يتسلقوا كما يتسلق الماعز لتدمير السكة الحديد الحجازية فامتعض فيصل من كلمة « ماعز » وسألهُ هل جرّب في حياته التسلق كالماعز من قبل ! ولما ذكر الكولونل العقبة واحتلالها اجابه الامير ان من الشطط تكليف انكلترا مثل تلك الخسائر الجسيمة لتحقيق هذا الاحتلال . وكان لورنس جالساً في الغرفة فضحك ضحكة صفراوية عمل منها الكولونل وحمله على تكليف الامير بصراحة ان يطلب الى الانكليز ان يرسلوا لهُ على اقل تقدير السيارات المصفحة الموجودة في السويس فضحك لورنس ثانية وقال ان هذه السيارات على طريقها الى الوجه الآن . وعاد لورنس الى القاهرة وصرف نظر القائد البريطاني العام عن الحملة الى العقبة وبين غايات الكولونيل من « مناورته » وبعد ايام عاد الى الوجه حيث اخذ يعوّد نفسه

الاخشيشان وشظف العيش فكان يمشي حافياً على صخور المرجان المسنة وعلى الرمال المحرقة مما لفت نظر البدو واستثار تعجبهم كثيراً

عوده ابو تايه

وفي شهر شباط من سنة ١٩١٧ تعرف ببدوي من «الحويطات» من فخذ اسمه «ابو تايه» وهذا البدوي هو المرحوم الشيخ عوده وقد قص علي المجاهدون القصص العجيبة عن اعماله وبطولته وأجمعوا على انهُ اشتهر في قومه بالتوفيق او « حسن الطالع » حتى قالوا انهُ على قلته في المال والرجال ما قط غزا الا وعاد رابحاً يتعثر بأثواب الكسب وقال عنهُ لورنس انهُ اعظم مقاتل في شمال الجزيرة العربية وبعقد اواصر الصداقة به صار اكتساب القبائل النازلة بين العقبة ومعان قاب قوسين او ادنى

ومنذ ما اجتمع لورنس وعودة لاول مرة تحابا لان لورنس كان معجباً منذ حداثة سنه بالفروسية وهذه الفروسية هي مما نقله معهم الصليبيون من بلاد العرب الى الغرب في القرون الوسطى وهي تنبت في الصحراء عادة ولا تزال ماثلة للناظرين بين البدو في الجزيرة وتميد ذكر عنترة وعبله ومجنون ليلى وحروب الجاهلية . ويدلنا على اعجاب لورنس بالفروسية انهُ قال وهو لا يزال تلميذاً في اكسفورد ان الدنيا بلغت اجلها في سنة ١٥٠٠ فقد لفحها البارود وهدمها الطبع الرخيص

وجرى ذات يوم ان الناس وهم في حضرة الامير فيصل ينتظرون طعام العشاء اذ شموا طقطقة خارج الخيمة فخرجوا فاذا هم بعودة يكسر اسنانه الصناعية بحجر ثقيل فسألوه ما الداعي الى ذلك فقال انهُ نسي ان هذه الاسنان الصناعية قد عملها لهُ احمد جمال باشا السفاح وانهُ يكره ان يأكل زاد فيصل باسنان جمال . وبقي عودة بسبب تكسير هذه الاسنان شهرين كاملين على السوائل ومن غير مضغ الى ان عمل لهُ « الحلفاء » اسناناً جديدة انكليزية بواسطة طبيب خاص ارسل لهذه الغاية من مصر

واقيمت في سنة ١٩٢٠ حفلة تعارف في شرق الاردن حضرها الاعيان المحليون والسير هربرت صموئيل المندوب البريطاني في فلسطين فالتفت السير هربرت الى الشيخ عوده وقال له « هل انت مسرور بالحل الذي آلت اليه الامبراطورية العثمانية وألا تظن ان عهد سلم مديد قد ذرّ قرنه على الشرق ؟ » فأجابهُ عودة بشدة واندفاع « اي سلم هذا ما دام الفرنسويون في سورية والانكليز في العراق واليهود في فلسطين ؟ » وكان الترجمان بينهما لورنس فكان ينقل الكلام بنفس الروح التي دفعت عودة الى الكلام، لأن الخيبة من غدر الحلفاء بالعرب كانت متشابهة في القلبين وناطقة باللسانين . ويشهد على هذا الغدر جميع الذين اشتركوا في الثورة العربية ممن ظنوا ان للحلفاء عهوداً مسؤولة ينفذونها وايماناً لا يحنثون بها